((ابن الرومي شاعر الشباب والشيب(١)))

لعل أهم شاعر تفجع على شبابه وجزع من مشيبه في مقدمات قصائده هو ابن الرومي . وحقا هو يستهل قسما من مدائحه وأهاجيه بمقدمات أخرى ، غير أن بكاء الشباب هو اللون البارز في صدر قصائده ، واللحن الحزين المحبب إلى نفسه ، القريب من قلبه ، ذلك اللحن الذي مضى يكثر من عزفه في فواتح قصائده بحيث غطّى على ما سواه من الألحان .

ويبدو أن حياته وما عاش فيه من الحرمان ، وما عرف عنه من اعتلال جسده ونفسه وحدّةِ مزاجهِ هي التي أعدته لأن يكون أكبر متخصص في بكاء الشباب ، بل في بكاء الحياة نفسها وحظه العاثر فيها .

فقد ولد لأسرة متواضعة رقيقة الحال ، وظلّ يعيش حياته كلّها فقيرا معوزا في عصر كانت فيه بغداد تموج بالمتع وتزخر بالملاهي من كل نوع ، إذ كان يعتمد في حياته على الجوائز التي كان يغدقها عليه الممدوحون . غير أن نصيبه منها لم يكن جزيلا ، لسبب بسيط وهو أنه لم يتصل بالخلفاء ولا نال جوائزهم الطائلة التي تغنيه عن السؤال زمنا ، أو تغنيه عنه بقية حياته ، بل كان بعيدا عن أكثرهم ، بغيضا إلى سائرهم . وهو بعدٌ وبغضٌ جعلا الكثرة المطلقة من مدائحه للولاة والوزراء والكتاب والقادة والقضاة ، ومن يضارعهم أو يقل عنهم في الرتبة والثروة ، وكانت المائة دينار هي غاية الغايات من جوائز الأمراء .

واجتمعت أسباب كثيرة أفسدت عليه حياته وسلبته متعتها وبهجتها، وأذكت في نفسه شعوره بالحزن والألم والحرمان ، إذ فقد والده وهو حدث ، وفقد والدته وهو شاب يافع ، فضاقت عليه الارض بما رحبت . ولم توادعه الأيام ولا صفت له ولا أقبلت عليه بعد وفاة والده ووالدته ، بل مضت تجرّعه حياته غصصا مريرة ، وتحيلها شقاء وبلاء لا انقطاع لهما . فقد عصف القدر بأبنائه الثلاثة واحداً تلو الآخر ، ورثاؤه لأوسطهم معروف مشهور . وتوالت فصول مأساته فاذا أخوه يموت ، وأسدل الستار

---

(١) ابن الرومي ، لعباس العقاد ص/١٧٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على آخر فصل من مأساته بموت زوجته ، فتمت بموتها مصائبه ، وكبر عليه الخطب وقل العزاء(٢) .

ولم يكن صحيح الجسم قوي البنية لا في شبابه ولا في شيخوخته ، بل كان ضعيف الجسم هزيلا نحيلا . واصطلحت عليه العلل والأسقام الجسمية والنفسية ، فاذا صحته معتلة ونفسه مضطربة (٣) ، واذا بهذين الضربين من الاعتلال الجسمي والنفسي يفضيان به الى رهافة في الحس وحدة في المزاج اقترنا بما عرف عنه من التطير الذي رأى معه كل شيء في حياته نذيرا من نذر الشؤم أو الشر الذي كان ينتظره ، بل يتوجس خيفة من أن يحيق به في كل لحظة (١) .

وأكبر الظن أن حياة مثل حياته بما شاع فيها من الضنك والفاقة ، ومن الشقاء والعناء ، ومن الحزن والحرمان ، وأن شخصية مثل شخصيته بما استبد بها من اختلال الأعصاب واعتلال النفس ، وأن مزاجاً مثل مزاجه بما سيطر عليه من طلب اللذة والإسراف في طلبها (٢) ــ لا بد أن يخلق منه شاعرا يعبد الحياة بل يعبد لذتها ومتعتها عبادة يخيل اليك معها « أنه شارب قبض على الكأس يود ان يجرعها مرة واحدة من فرط التعطش والخوف عليها ، لولا أنه يستعذ بها ويستطيبها فيرشف منها رشفة بعد رشفة ، ويعود إليها ينظر ما فرغ منها وما بقي فيها ، ويضن ويشتاق ويشعر بمرارة الفقد لفرط شعوره بحلاوة المتعة ، فما نقصت من كأس الحياة قطرة إلا أحس بطيبها ، وأحس بألم فقدها وعرف مقدارها وقاس من الكأس حيزها ، وعاد يترشف لينسى ، فيزداد ذكراً على ذكر ، وخسارة بعد خسارة » ، كما يقول الأستاذ العقاد(٣) . ومن أجل ذلك يكون بكاؤه شبابه وتحسره عليه أشد التحسر صورة طبيعية عن حياته المحرومة وطلبه للذة .

---

(١) المرجع نفسه ص/٩٠ .
(٢) المرجع نفسه ص/١١٢ ، ١٢٤ .
(٣) انظر تطيره في زهر الآداب ١٧١/٢ وما بعدها .
(٤) انظر مروج الذهب ٢٨٤/٤ ، زهر الآداب ٢/ ٩٠.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأول ما يلاحظ على مقدماته التي بكى فيها شبابه أنها كثيرة ، فقد افتتح بها ما نيف على ثلاثين قصيدة (١) . وهي كثرة لم نعهدها عند غيره من الشعراء ممن سبقوه أو عاصروه .

وثانية الخصائص أن مقدماته التي بكى فيها شبابه تتصف بالطول والتفصيل ، إذ لا تقل أصغر مقدمة منها عن عشرة أبيات ، كما يزيد بعضها على ثلاثين بيتا ، وقد تطول أكثر من ذلك . وهذه الخاصة لا تتصف بها مقدماته من هذا النوع ، بل تتصف بها مقدماته من كل نوع ، كما تتصف بها قصائده في جملتها . غير أن طول مقدمة الشباب والشيب التي لم تكن طويلة عند غيره يعود الى سببين أولهما : أنه شغف شغفا شديدا بتقليب المعنى الواحد على جميع الوجوه حتى يأتي على كل دقائقه وخفاياه ولا يبقى فيه بقية لأحد (٢) . وثانيهما : أنه وجد في هذه المقدمة متنفسا بث فيه ما كان يعاني من الأحزان والحرمان لماديته التي غلبت عليه ، ولتهالكه على المتاع بالحياة ومناعمها ، وعلى رأسها المرأة التي فقدها بفقد شبابه .

وثالثة الخصائص أنه لا يذرف الدموع ولا يتوجع على ما فات من عمره على أنه فترة زمنية سلخت منه ، بل يذرف الدموع بغزارة وحرارة على ما انقضى فيه من المتع واللذات ، وما كان له فيه من جدة الشعور وتوهجه وما أعقبه من الذبول والخمول . فالشباب دائما مقترن عنده باللذة والمتعة ، والشيب دائما مؤذن بانتهاء اللذة والمتعة ، بل أنه ليرى أن الشباب هو الحياة ، وأن الشيب هو الموت .

وهذه هي أشهر الخصائص الشكلية والموضوعية التي تسيطر على مقدماته التي بكى فيها شبابه . ونحن نسوق أمثلة منها لكي نوضح بها تلك الخصائص ، ولكي نستخلص منها خصائص أخرى موضوعية وفنية . واستمع اليه يقول في فاتحة مدحته الرائية لأبي فراس (٣) محمد بن فراس

---

(١) مخطوطة ديوانه بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ١٣٩ أدب ، الاوراق ذوات الارقام ١٠ ، ١١ ، ٢٨ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٨٣ ، ١١٣ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ١٦١ ، ١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٩٧ ، ٢٣٨ ، ٢٥٠ ، ٢٦٨ ، ٢٩١ .

(٢) العمدة ٢٣٨/٢ ، وفيات الاعيان ٤٢/٣ ، مرآة الجنان ١٩٨/٢ معاهد التنصيص١/٣٨.

(٣) في المخطوطة ابو الفوارس . وليس فيمن احصاهم « جست » من ممدوحيه في كتابه عن ابن الرومي من يسمى أبا الفوارس . وربما كان الخطأ من الناسخ ، فان ممدوحه محمد بن فراس يسمى أبا فراس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

احد انصار القاسم بن عبيد الله بن وهب من كبار موظفي الدولة لعهد الموفق (١) :

لا بِدْعَ أن ضَحِكَ القتيرُ	فبكى لضحكته الكبيرُ
عاصى العزاء عن الشبا	ب فطاوع الدمع الغزيرُ
كيف العزاء عن الشبا	ب وغصنه الغض النضيرُ
كيف العزاء عن الشبا	ب وعيشه العيش الغريرُ
بأن الشباب فلا يدٌ	نعم المجاور والعشيرُ
بان الشباب فلا يدٌ	تحنو ولا عين تشيرُ
ولقد أسرت به القلوب فقلبي اليوم الأسيرُ	
سقيا لأيَّامٍ مَضَت	وطويلها عندي قصيرُ
أيام لي بين الكوا	عب روضة فيها غدير(٢)
أصبي وأصبي الغا	نيات وأستزارُ وأستزيرُ
بيضَ الوجوه عقائلا	لم يُصْبِهِنَّ سوايَ زيرُ

فهو يعبر عن أحزانه وآلامه تعبيرا بسيطا مباشرا لا صوّر فيه ولا ما يشبه الصور ، وكأنما بلغ به الوجد مبلغا لم يعد يلتفت معه إلى شيء من أدوات البديع سوى ما يتطاير منها في مقدماته . وهي شظايا لا تكون صورا معقدة مركبة كما نرى في البيت الأول ، إذ يطابق بين ضحك وبكى. أما بعد ذلك فانه يرسل نفسه على سجيتها ، ويسترسل في بث أحزانه استرسالا يعتمد فيه على التفصيل الذي يتوسل به الى اظهار مواجعه ومواجده على فقد شبابه ، حتى ليكرر الشطر الواحد في أكثر من بيت ، ويضيف إليه شطراً آخر في البيت الذي يليه ، يكشف به عن حسنة جديدة من حسنات الشباب التي يتفجع عليها ، على نحو ما يتضح في البيت الثالث والبيت الرابع . وهذه صفة غلبت على أكثر مقدماته في بكاء الشباب .

(١) مخطوطة الديوان الورقة ٩٧ .

(٢) في المخطوطة « الكواكب » ولا وجه لها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وواضح أيضا أنه حزين حزنا شديدا لضياع شبابه ، وأنه متألم أشد الألم لأن المشيب وخطه . وهو حزن وألم لا يتماسك معهما ، وإنما ينهار أمامهما ، ويسكب الدموع سكبا ، ويصبها صبا . ويتضح تمسكه بعهد الشباب في ترديده لكلمة الشباب خمس مرات متتالية كأنما يريد أن لا ينساه ، وانما يريد أن يظل متعلقا به ، ذاكرا له . وهو تعلق مصدره ما كان ينعم به فيه من الملاذ والنعم لا ما كان له فيه من العيش الهادىء والثراء العريض ، والجاه والسلطان . وحقا كان الشعراء قبله يبكون شبابهم ويذكرون سالف أيامهم ، غير أنهم لم يسفحوا العبرات مثلما سفح، ولا حزنوا مثلما حزن .

ولا بد أن نلاحظ أن اللذة التي افتقدها بفقده شبابه هي مصدر حزنه الشديد . وهي لذة المرأة قطبها الذي تدور عليه ، وهو يصرح بذلك تصريحا لا لبس فيه ، إذ يقول : انه كان في شبابه يسبي قلوب الحسان ويصبيهن ويتمتع بهن ، فلما شاب انفضضن من حوله ، وبعدن عنه ، وأصبحن لا يقتربن منه ، ولا يشرن إليه ولا يتعاطفن معه . وسنرى أن المرأة ومتاعه بها هما العقدة الأساسية التي يقوم عليها بكاؤه لشبابه في كل مقدماته .

واستمع اليه مرة ثانية يقول في فاتحة مدحته الضادية لعلي بن محمد ابن الحسين من بني فياض الأسرة الفارسية الواسعة النفوذ لعهده(١) :

لهف نفسي على العيون المِراضِ والوجوه الحسان مثل الرياضِ
حال بيني وبين أيامهن البيض ما احتل مفرقي من بياضِ
نظرت نظرة إليّ الملمات فأعزينهن بالاعراضِ (٢)
فالعيون المراض يصدفن طورا ويلاحظن عن قلوب مراضِ
ليس بيض من المشيب رثاث شكل بيض من الغواني بضاضِ(٣)

(١) مخطوطة الديوان الورقة ١٥٥ .

(٢) في المخطوطة « فأغرتهن » . ولعلها : فافريتَهُنّ (المجلة)

(٣) البضاض : الممتلئات .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عجبا للشبـاب يرمـي ُفيُصْمي وظبـاءُ الأنيس عنه رَوَاضي
والمشيب البرىء يُعـرض عنـه أو يـلاقي بجفـوة وانقباضِ
وغنـاء الخضاب عن صـاحب الشيــب غنـاء الرُقي عـن المراضِ
ُملبَس" فيـه فرحـة عن غـرور وهو باق وترحـة وهو ناضي (١)
خـدعة ثـم فزعـة أن هــذا لحقيـق بكثـرة الرفـاضِ
حسرت غمـرة الغـوايـة عنـي ولقـد خضتهـا مع الخـوّاض
أجتني الأقحـوان والورد والنـر جس عفوا من الغصون الغضاضِ
ثم عادت عـوائد الدهـر تمحـو بالتقـاضي محـاسن الإقـراضِ
كنت ـأرْني ـوكنت ـأرنى ـفاغضضت وأغضَضْتُ أيّما إغضَاضِ (٢)
ادركتني الخطـوب ركضـا على ظهـر خفـي مسـيرةً ركـاضِ
ويسير على الفتى الشيب مـا لم يقضـه حتفـه المؤجـل قاضِ
ولهانت عـلى امـرىء أخطأتـه شكـة السهم صكة المعـراضِ (٣)
عدّ ذكـر الشبـاب والرزء فيـه واعزم الصبر عـزمة ابن مضاضِ
كان شرخ الشباب قرض الليـالي ووراء القروض قِدماً تقاضي
وستسـلوه بالتقـادم لا بـل بالأسى بـل بصاحب مُعتـاضِ

ونحن نسجل على هذه المقدمة نفس الملاحظات التي سجلناها على سابقتها ، فهو معنيٌ عناية شديدة بالتعبير عن لهفته تعبيرا مباشرا واضح المعاني سهل الألفاظ ، دون أن يحول بينه وبين التعبير عنها زخرف شكلي سوى ما استعان به من المشاكلة بين بياض الأيام وبياض مفرقه ، وسوى مطابقته بين يصدفن ويلاحظن ، والقرض والتقاضي وسوى تجنيسه بين نظرت ونظرة ، واعزم وعزمة ، وعادت وعوائد ، وأغضضت واغضاض ، وشكة وصكة ، وكلها أدوات بسيطة لم يغمسها في أوعية التصوير ، بل تركها عارية من كل لون وظل ، لان همه ليس في التصوير ، بل في التعبير عن نفسه وما يداخلها من الحزن .

(١) الترح : الحزن والغم .
(٢) رنا ، أدام النظر . ويرني : يستصبي النساء فينظرن اليه . ويرني : تستصبيه النساء فينظر اليهن .
(٣) قد تكون : المقراض (المجلة) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبين كذلك انه لا يبكي شبابه مجردا عن الذكريات بل عن الملذات ، فهو يبكي النساء اللائي صددن عنه ، وأبعدهن شيبه منه ، أولئك اللائي يلقين بأنفسهن إلى الشباب ويعرضن عن الشيوخ . وانه ليعجب من هذه السنة التي تجري عليها النساء في علاقاتهن مع الرجال ، ولا يرى لنفسه بعد مشيبه حظا منهن مهما خضب شعره ، إذ لا يجدى الخضاب مع الشيب شيئا ، وما أشبهه بالرقي التي تعلق في رقبة المريض طلبا للشفاء بل انه اذ خدع النساء به الى حين فانهن معرضات عنه بعد حين . ويعود إلى الحديث عن ذكرياته معهن ، كأنه يريد أن يتسلى بها عن إعراضهن ، فقد سام سرح اللهو ولها بالحسان لثما وتقبيلا ، يوم أن كن يقبلن عليه إقبالا . ولكن الأيام لم تدم له ، فقد انقلبت عليه وراحت تعنّيه كأنما تريد أن تعكر عليه صفو ما متعته به . ولا يلبث أن يعلن فزعه وجزعه من المشيب ، اذ هو الطريق الى الهلاك . وهنا يظهر تعلقه بالحياة ، فهو راض بالشيخوخة والحياة السرمدية ، أما أن يشيخ وتفضي به الشيخوخة إلى الموت فهذا ما لا يرتضيه ولا يقنع به .

فالحرمان من المتاع بالمراة هو ما يبكيه لا المشيب من حيث هومشيب والشباب هو الذي كان يجذبها نحوه ، ويحقق له أوطاره منها ، أما المشيب فهو الذي نأى بها عنه ، وتركه جائعا جوعا جنسيا إليها . ومن أجل ذلك فانه اذا بكى شبابه فانه إنما يبكي لذته ، وإذا جزع من مشيبه فانه إنما يجزع من حرمانه .

وهو لا يني يلهج بهذه المعاني مزاوجا بين لهفته وحسرته على شبابه وبين حرمانه من المتع والملاذ في مشيبه ، وهي متع وملاذ مصدرها المراة . ومن خير ما يصور ذلك عنده ـ فضلا عن المقدمتين السابقتين ـ قوله في صدر مدحته الطائية في أبي عيسى العلاء بن صاعد من كبار موظفي الدولة لعهد المعتمد ، وابن رئيس الوزراء صاعد بن مخلد (١) :

---

(١) مخطوطة الديوان الورقة ١٦١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بدا الشيب إلا ما تدارى المواشطُ وفي وضح الإصباح لليل كاشطُ
ارى خطتيَ كره يحيطان بالفتى اذا ما تخطتــه الحتوف العوابطُ
لكل امرىء من شيبه وخضابـه عناء معنّ أو بغيض مرابـط
وحظ أخي الشيب المسود شيبـه مقالة أهل الرشد غاوٍ مغـالطُ
مموّه وزر مبتــغ صيــد محـرم جنيب هوى للجهل بالغيّ خالطُ
يخادع بالافك النساء عن الصبـا وهل يبين لون الافك والحق غالطُ
اذا أنا لاقيت الحسان موانحـي قِلىً في رضاً ضاقت عليَّ البسائطُ
قِلىً لمشيبي في رضا عن خليقتي فهن دوان والقلـوب شـواحطُ
لججن قلىً أن لج شيبي تضاحكـا كما لج في النفر المهـار الخوابطُ
منعن قضــاء الحاج غير عـوابث على أنهن المعرضات المــوائطُ
دع المرد صحبا والكواعب مألفـا فأخدانك اليوم الكهول الأشامطُ
وكل امرىءٍ لاقى من الدهر رائشاً فسوف يلاقيــه من الدهر مارطُ

فأنت تراه يعلن فلسفته في بكاء الشباب والفزع من المشيب ، وهي فلسفة مادية ، إن صح هذا التعبير ، فلسفة تقوم على التعلق بالمرأة وطلب المتاع بها ليس في عهد الشباب فحسب ، بل أيضا في عهد المشيب . فهو يتعقب المرأة من أجل اللهو بها وقضاء وطره منها ، وهي لا تصله بعد أن لمع الشيب في رأسه ، بل تعبس في وجهه ، وتنأى بجانبها عنه ، وتمعن في كرهها له وزهدها فيه ، بينما يزداد هو تعلقا بها وطلبا لها . ويسووه أشد السوء ، ويؤلمه بأرح الألم أن يراها قريبة منه ، بعيدة عنه ، لا تنوّله ولا تقضي حاجته ، فتضيق عليه الأرض بما وسعت ، وينكب على نفسه يبكي عهد الشباب ، يوم أن كانت تصله وتنوّله ، ويخيل اليه أن من سنة الحياة أن تعطي وتمنع ، بل أن تمد للانسان أسباب اللهو ثم تقطعها ، كأنما تريد أن تحرمه بمقدار ما أعطته .

وعلى نحو ما لاحظنا أنه لم يعن بالتصوير في المقدمتين السابقتين نلاحظ نفس الظاهرة في هذه المقدمة . وهي ظاهرة غريبة ، فانه عني في قصائده بالتشخيص والتجسيم ، وخاصة في وصفه للطبيعـة ووصفه لهفـوات صاحبه (١) . أما في مقدماته التي يبكي فيها شبابه فانه دائما مشغول

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٠٧ ، ٢١٠ .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالتعبير عن إحساساته ووجداناته ، وعن حرقته ولهفته ، وكأنه لا يريد أن يقف تدفقها بالاشتغال عنها بالتصوير ، إنما يريد أن يتركها تتدفق لكي يفرغها ويستريح منها . وأن ألم بشيء من ألوان البديع فانه لا يعقد فيها ولا يداخل بينها ، بل يستخدمها بسيطة وعادية ، فهو يطابق في المقدمة بين الافك والحق ، والقلى والرضا ، ودوان وشواحط ، ورائش ومارط ، وهي مطابقة لا تعمق فيها ولا تأنق ، اذ هي لا تكشف عن معان خفية غامضة أو متناقضة متضادة ، كما أنها لا تتصل بالتصوير من قريب ولا من بعيد . فهو يستغل هذا اللون من ألوان البديع ، لون الطباق، استغلالا بسيطا ، لأنه الوسيلة الطيعة التي تسعفه في توضيح الفروق العظيمة التي يحسها بازاء الشيب والشباب ، أما أن يجعل الفن الخالص قصده ووكده فهذا ما لا نظفر به ولا نعثر عليه في أي مقدمة من مقدماته التي بكى فيها شبابه .

وليس معنى ذلك ان مقدماته من هذا النوع خالية من أي صورة ، وانما معناه أن الصور ليست لونا اساسيا فيها ، ولا صفة غلابة عليها . والا فنحن نراه في البيت الأول من المقدمة السابقة يشبه شعره الأبيض بنور الصباح وشعره الأسود بظلمة الليل ، وهو تشبيه فيه دقة وإحكام، اذ وصف الصباح بأنه واضح وأضاف اليه صفة أخرى هي : « كاشط » ، ليدل على أن الشيب شمل رأسه ، وتأمل ما تحمل كلمة « كاشط » من المعاني والحركة ، فهو يريد أن يبين أن الشيب وخطه وأزال شعره الأسود كلّه ومحاه محوا ، واستأصله استئصالا . غير أن عدد الصور في مقدماته قليل ، فانه لا يزيد على أن يلم بواحدة منها أو باثنتين في المقدمة بعد المقدمة . وهي صور لا تكون واسعة ولا مفصلة ، إنما تكون بسيطة وقليلة التفاصيل ، على نحو ما نرى قوله بمطلع قصيدته الميمية(١) :

راح شيبي عليّ مثل الثّغام وغدا عاذلي ألدّ الخصام

فهو يشبه شعره الأبيض الذي انتشر في رأسه وغطاه بشجرة الثغام ذات الأزهار البيضاء . وهي صورة بسيطة عادية ، بل قديمة لا تركيب

(١) مخطوطة الديوان الورقة ٢٦٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيها ولا تعقيد ، وعلى نحو ما نرى في مطلع مدحته الرائية لأبي الحسين إسحاق بن ابراهيم الكاتب (١) :

لعمري لقد أنكرتُ غير نكيرِ عبوس الغواني لابتسام قتيرِ
كذا هن لا يوقعن ودًا على امرىء اطارت غرابا عنه كفُ مطيرِ

فهو يطابق في البيت الأول بين العبوس والابتسام ، ويستعير الابتسام للقتير وهو الشيب ، لما بينهما من التشابه في البياض ، فان الانسان إذا ابتسم ظهرت أسنانه البيضاء . اما في البيت الثاني فيشبه شعره الاسود الذي كان يزين رأسه بالغراب الذي كان واقعا عليه ، ولم يلبث أن طار عنه . وهما صورتان قديمتان مألوفتان .

وظاهرة فنية أخرى في مقدماته التي يبكي فيها شبابه هي انه اختار في الأعم الأغلب لقصائدها التي هي جزء منها الاوزان القصيرة . وهي أوزان خفيفة وسريعة تتفق أشد الاتفاق مع نفسيته الثائرة المتوترة ، وما يعتمل فيها من الألم الذي لا يريد أن يكتمه ولا ان يتخلص بهدوء منه ، بل يريد أن ينفثه على دفعات سريعة ومتلاحقة . فالمقدمة الأولى التي استشهدنا بها والتي مطلعها :

لا بدع أن ضحك القتيرُ فبكى لضحكته الكبيرُ

من مجزؤ الكامل ، والمقدمة الثانية التي أثبتناها والتي مطلعها :

لهف نفسي على العيون المراض والوجوه الحسان مثل الرياضِ

من بحر الخفيف .

وله مقدمات أخرى كثيرة تجري قصائدها في البحور الخفيفة السريعة منها تلك الأبيات التي استهل بها مدحته السينية في عبيد الله بن سليمان ابن وهب ، رئيس الوزراء أيام المعتضد ، والتي مطلعها (٢) :

ما رَشأ الأنسِ بمُستأنِس إلى بياضِ الشَّعَرِ المُخلِس

فالقصيدة من البحر السريع . ومنها مقدمته لقصيدته القافية في مدح

(١) مخطوطة الديوان الورقة ١١٣ .
(٢) مخطوطة الديوان الورقة ١٤٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عبيد الله ابن عبد الله بن طاهر ، حاكم بغداد من قبل الطاهريين ، ومطلعها (١) :

علاك قناع المشيب اليقَقْ وثوب المشيب جديد خَلَق

فالقصيدة من البحر المتقارب . ومنها مقدمته لقصيدته البائية في مدح على ابن يحيى المنجم احد رجالات البلاط الممتازين أيام المعتمد،ومطلعها(٢):

شاب رأسي ولاتَ حين مَشيبِ وعجيب الزمان غير عجيبِ

فالقصيدة من البحر الخفيف .

فهذه الأوزان السريعة التي تتابع تفعيلاتها تتابعا ، وتتدافع كأنما تريد أن يسبق بعضها بعضا تنسجم كل الانسجام مع نفسه الهائجة المائجة التي استبد بها الوجد الممض ، وسيطرت عليها الحسرة القاتلة ، ومن أجل ذلك فانه عمد إليها عمداً ، لأنه يود أن يقذف بوجده وحسرته قذفا .

ولسنا ننكر أنه صاغ بعض قصائده التي قدم بين أيديها ببكاء شبابه في البحور الطويلة ، كما نرى في فاتحة قصيدته الرائية التي مدح بها أبا الحسن إسحاق بن يزيد الكاتب والتي مطلعها (٣) :

لعمري لقد أنكرت غير نكيرِ عبوس الفواني لابتسام قتيرِ

فهي من البحر الطويل . وكما نرى في مقدمة قصيدته الخائية في مدح عبيد الله ابن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد ، ومطلعها (٤) :

بدا الشيب في رأسي فجلى عمايتي كما كَشفت ريحٌ عَماءَ تطخطخا

فهي من البحر الطويل . وكما نرى في مقدمة قصيدته الدالية في مدح صاعد بن مخلد ، رئيس الوزراء في عهد المعتمد ، ومطلعها (٥) :

أبين ضلوعي جمرةَ تَتَوقَّدُ على ما مضى أم حسرة تَتَجَدَّدُ

فهي أيضاً من البحر الطويل .

(١) مخطوطة الديوان الورقة ١٩٧ .
(٢) مخطوطة الديوان الورقة ١٠ .
(٣) مخطوطة الديوان الورقة ١١٣ .
(٤) مخطوطة الديوان الورقة ٦٣ .
(٥) مخطوطة الديوان الورقة ٦٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونستطيع أن نردّ اختياره لهذه الأوزان الطويلة إلى بعض الفترات التي كانت تهدأ نفسه فيها ، ويستغرق في تفكير عميق في مصيره وحاله . غير أن الهدوء لم يكن يرين على نفسه حتى وهو ينظم في هذه الأوزان ، بل كانت نفسه تثور ، واذا هو يثور مع ثورتها على رتابة هذه الأوزان ، مستحدثا فيها تقطيعات صوتية تبعث فيها شيئا من السرعة والحركة ، على نحو ما نرى في مقدمة قصيدته الطائية في مدح أبي عيسى العلاء ابن صاعد ، تلك التي وقفنا عندها والتي مطلعها :

بدأ الشيب إلا ما تدارى المواشطُ وفي وضح الاصباح لليل كاشطُ

فهي من البحر الطويل ، غير أنه مضى يقطع بعض أبياتها تقطيعات صوتية من مثل قوله :

قليٌ لمشيبي في رِضاً عن خَليقَتي فَهُنّ دوانٍ والقلوبُ شواحِطُ
دعِ المردَ صَحباً والكواعب ألفاً فأخدانك اليوم الكهول الاشامط

وهي تقسيمات موسيقية أضفت على الأبيات شيئا من الحركة وغيرت مجراها الرتيب الهادىء .

كان ابن الرومي إذن مشغولا شغلا شديدا في مقدماته التي بكى فيها شبابه بالتعبير عن آلامه وأحزانه لضياع شبابه وهي الآم وأحزان مرجعها الى أنه كان عابدا للحياة ، بل لملذاتها الحسية . وهي ملذات المرأة محورها الذي تدور حوله ، فقد كانت تقبل عليه في عهد الشباب وتلبي رغبته وتقضي حاجته ، أما حين علت به السن ووخطه الشيب ، فانه أحس الحرمان منها والجوع إليها ، فكره الشيخوخة لأنها تصده عن المرأة ولانها تصد المرأة عنه ، فمن أجلها كان يخاف غائلة السن ، ومن أجلها كان يتمنى الخلود (١) ، كأنما يريد أن يظل مفضياً إليها ، منكبا عليها ، يتمتع بها ، ويقضي أوطاره منها .

(١) ابن الرومي ، لعباس العقاد ص ٢٩٢ .

شبكة الألوكة
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واقرأ هذه الأبيات التي قدم بها بين يدي مدحته الدالية لصاعد بن مخلد رئيس الوزراء لعهد المعتمد ، فانها تكشف عن صميم فلسفته في البكاء ، يقول (١) :

أبَيْنَ ضلوعي جَمرةٌ تتوقَّدُ ... على ما مَضَى أم حَسرةٌ تتجدَّدُ
خليلي ما بعد الشباب رزية ... يحم لها ماء الشئون ويعتدُ (٢)
فلا تلحيا ان فاض دمع لفقده ... فقلَّ له بحر من الدمع يثمدُ (٣)
ولا تعجبا للجَلد يبكي فربما ... تفطر عن عين من الماء جَلْمدُ
شباب الفتى مجلوده وعزاؤه ... فكيف وأنّى بعده يتجلد
وفقد الشباب الموت يوجد طعمه ... صراحا وطعم الموت بالموت يفقدُ
رزئت شبابي عوده بعد بداةٍ ... وهن الرزايا بادئاتٌ وعودُ
سلبت سواد العارضين وقبله ... بياضهما المحمود إذ أنا أمردُ
وبدلت من ذاك البياض وحسنه ... بياضا ذميما لا يزال يسوّدُ
لشتان ما بين البياضين معجب ... أنيق ومشنوءٌ إلى العين أنكدُ
وكنت جلاءً للعيون من القذى ... فقد جعلت تقذى بشيبي وترمد
هي الأعين النجل التي كنت تشتكي ... مواقعها في القلب والرأس أسودُ
فما لك تأسى الآن لما رأيتها ... وقد جعلت مرمى سواك تعمّدُ
تشكى إذا ما أقصدتك سهامها ... وتأسى إذا نكّبن عنك وتكمدُ (٤)
اذا عدلت عنا وجدنا عدولها ... كموقعها في القلب بل هو أجهدُ

أرأيت إلى النيران المستعرة بين جوانحه ؟ أرأيت الى حسرته الدائمة المتجددة على مرّ الأيام ؟ إن فقد الشباب عنده هو الخطب الفادح ، بل مصيبة المصائب التي تجري دموعه حتى تستنفدها . وانه ليشعر بأنه

(١) مخطوطة الديوان الورقة ٦٤ .
(٢) حم له : قدر . عتد : جسم وعظم .
(٣) ثمد : جرى وسال .
(٤) كمدَ الرجلُ يكمَد كمَدا : ومرض قلبه من الكَمدة فهو كامد وكمد وكميد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا يوفيه حقه من البكاء حتى لو ذرف بحراً من الدموع ! وما اكثر ما صبر وتجلد على أحداث الدهر ، أما أن يسلب شبابه فهذا مالا يطيق الصبر عليه ، فان الشباب في رأيه لباب الحياة وصميمها ، وهو الذي يبعث في نفسه القوة ، وهو الذي يتسلى به ويفزع اليه ، فاذا فقده فلا سبيل الى الصبر عليه . ويتعاظم إحساسه بالشباب حتى ليتخيل أنه الحياة نفسها، وانه لا فرق بين فقده وفقدها ، سوى أن فاقد الشباب يراقب نفسه وهو يموت موتا بطيئا ، بينما فاقد الحياة لا يعلم بموته ولا يأسى على ما فات .

والشباب مرتبط عنده أشد الارتباط بالمرأة ، تلك التي كان يشغف قلبها حبا ، والتي كانت بدورها تشغف قلبه حبا ، أما حين شاخ فازورت عنه ، ومضت تواصل لداتها من الفتيان . وانه ليعجب من أمره معها ، فقد كانت في عهد الشباب تنظر اليه ، وكان هو يشتكي من سهام عينيها التي كانت تتسلل الى قلبه فتكاد تقتله ، وهو في عهد الشيب يشتكي انصرافها عنه ويحزن له ، بل إن شعوره بالألم لصدوفها عنه أشد من شعوره لسهامها التي كانت تنفذ الى قلبه وتصميه .

فالمرأة والمتاع بها لا تخلو مقدمة بكى شبابه فيها من ذكرها ، بل هي شغله الشاغل وهمه الأول ، ومصدر بهجته وجمال حياته . ويذهب الأستاذ العقاد الى ان المرأة هي كاهنة المعبد التي تتم على يديها مراسم عبادته للحياة ، محورها الذي تلتف حوله الشعائر والقرابين (١) .

ولا زلنا نلاحظ غلبة الأسلوب العادي على هذه الأبيات ، فهو فيها كالنائح الذي ينوح متوجعا متألما على شبابه ، في عبارة مصقولة بليغة مؤثرة دون أن يجنح الى التأني في صقلها أو يتمهل في تهذيبها لترصيعها بالصور . وكل ما هناك أنه يميل الى عنصر المطابقة والمشاكلة لكي يبرز بهما المفارقات العظيمة ، التي يراها بين الشباب والشيب . وهي مطابقة ومشاكلة لا تعمق

(١) ابن الرومي ص ٢٩٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا اغراب ولا غموض فيهما ، بل فيهما قرب المأخذ والمأتى ووضوح المعنى، ولا اكثار منهما بحيث تزدحم الأبيات بهما ، بل هو يستخدمها بمقدار ما يسعفانه في إظهار تلك المعاني التي يحسها والتي يريد أن يظهرها . فهو يطابق بين بادئات وعود ، وبين السواد والبياض ، وبين أقصد ونكب ، وبين عدول وموقع ، كما يشاكل بين بياض العارضين وجدتهما وسحرهما وفتنته به ، وبين بياض الشيب وقبحه وكرهه له .

وكلما مضينا في استعراضنا لمقدماته التي بكى فيها شبابه ظهر لنا بوضوح تعلقه بالمرأة ، وألمه لبعدها منه وازورارها عنه ، وانه اذا بكى شبابه الضائع فانه انما يبكي حرمانه منها ورغبته فيها . فهي شباب الحياة وسر جمالها ، وأساس استمرارها . واستمع اليه يردّد هذه المعاني في مقدمة مدحته القافية لعبيد الله بن عبد الله ابن طاهر ، حاكم بغداد ، وهي تنساب على هذا النحو (١) :

علاك قناع المشيب اليققْ ... وثوب المشيب جديدٌ خَلَقْ(٢)
علاك فأبرق إبراقة ... تراع لها ظبيات البرقْ
وأنى تراع بما أومنت ... به من حبالك ذات العلقْ
ومن نبلك المرسلات التي ... صوائبها في الرمايا نسقْ
بلى في المشيب لها رائع ... وان هو أطفأ منها الحرقْ
وشرخ الشباب وان صادها ... أحب اليها لذاك الأنق
أعاذلتي ان بكيت الشبا ... ب إنيَ لم أبك ثوبا سحقْ(٣)
لقد علم الدهر أن الشبا ... ب ثوب لدى الناس لا كالخرقْ

فهو كاره لشيخوخته ، مبغض لمشيبه ، لا لشيء إلا لأنه كرَّهَهُ الى النساء وزهدهن فيه من بعد أن كان يأسر ألبابهن ويوقعهنَّ في حبال حبه ويغلل لانفضاضهن من حوله بعد أن شاخ بأنه لا تعدل لذته لهن وإمتاعه

(١) مخطوطة الديوان الورقة ١٩٧ .
(٢) اليقق : الناصع البياض .
(٣) سحق : بلي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إياهن لذة الشباب وإمتاعهم لهن (ومن أجل ذلك فانهن يعرضن عنه ويقبلن على غيره من الشباب ، ومن اجل ذلك أيضا فانه يذرف العبرات على شبابه) .

ومن عجيب الأمر أن الشريف المرتضى لم يقف في كتابه : « الشهاب في الشيب والشباب » ولا في « أماليه » عند اكثار ابن الرومي من بكاء شبابه ولا عرض لمعانيه ، ولا حاول التماس تعليل لذلك ، انما يشير اشارة عابرة الى مختارات من أبياته التي بكى فيها شبابه ، وهي اشارة قليلة ونادرة من مثل قوله : قال ابن الرومي وجوّد (١) :

كبرت وفي خمس وستين مكبر ... وشيب فأجمال المها عنك نفّر

وقوله (٢) : قال ابن الرومي :

كفى بسراج الشيب في الرأس هاديا ... لمن قد أضلته المنايا لياليا
أمن بعد ابداء المشيب مقاتلي ... لرامي المنايا تحسبيني ناجيا
غدا الدهر يرميني فتدنو سهامه ... لشخصيَ أخلِقْ أن يصبن سواديا
وكان كرامي الليل يَرمي ولا يَرَى ... فلما أضاء الشيب شخصي رمانيا

وعلق على الابيات بقوله : « انه احسن فيها كل الاحسان ، أما البيت الأخير فانه أبدع فيه وأغرب ، وما علمت أنه سبق إلى معناه ، لأنه جعل كالليل الساتر على الانسان ، الحاجز بينه وبين من أراد رميه لظلمته ، والشيب مبديا لمقاتله هاديا الى اصابته لضوئه وبياضه . وهذا في نهاية حسن المعنى .

وقوله (٣) : من معاني ابن الرومي التي فتقها قوله يذم من جعل مصيبة غيره منسية له مصيبته ، وعاب من تعلل بالتأسي بما نال غيره ، وهو يرثي شبابه واحسن :

---

(١) الشهاب في الشيب والشباب ص ٣٩ .
(٢) أمالي الشريف المرتضى ٢٣٩/١ .
(٣) المصدر نفسه ص ٦٢٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

يا شبابي وأين مني شبابي آذنتني أيامه بانقضابِ
لهف نفسي على نعيمي ولهوي تحت أفنانه اللدّان الرطابِ
ومعزٍّ عن الشباب مؤسٍ بمشيب اللدات والأصحاب
قلت لما انتحى يعد أساه من مصاب شبابه كمصابي[(١)]
ليس تأسو كلوم غيري كلومي ما به ما به وما بي ما بي

فضلا عن قطعة أخرى أوردها له (٢) . وهي في مجموعهما قليلة جدا بالقياس إلى ما أورده لأبي تمام والبحتري سواء في أماليه (٣) «أو في الشهاب في الشيب والشباب(٤) » . ولا ندري لماذا أهمل ما لابن الرومي من المقطوعات والمقدمات التي ذم فيها شيبه وتألم به وجزع منه ، والتي بلغت أبياتها من الكثرة ما يعدل ما اختاره للبحتري عشرة أضعاف ، فانه اصطفى للبحتري مائة وأربعين بيتاً ، بينما لابن الرومي ما يزيد على ألف بيت في بكاء الشباب ، بل ان مقدمة واحدة له (٥) ، تساوي ما انتخبه للبحتري من كل قصائده . ولو وقف طويلا عند بكاء ابن الرومي لشبابه لكشف لنا عن كثير من معانيه وصوره ، فانه من أقدر الأدباء على تجلية خفايا المعاني ومعرفة دقائقها واستنباط أسرارها .

لسنا ندري لماذا أغفل الشريف المرتضى إكثار ابن الرومي من بكائه لشبابه مع ان كلا منهما شيعي . وقد لا يكون وقع على ديوانه ولا عثر عليه إذ نراه يصرح في مطلع كتابه : « الشهاب في الشيب والشباب » بقوله (٦) : « أعلم أن الاغراق في وصف الشيب والاكثار من معانيه واستيفاء القول فيه لا يكاد يوجد في الشعر القديم ، وربما ورد لهم فيه الفقرة بعد الفقرة ، فكانت مما لا نظير له . وانما أطنب في أوصافه واستخرج دفائنه

---

(١) عجز البيت غير واضح المعنى وقد ورد في المراجع على صور مختلفة (المجلة)
(٢) أمالي الشريف المرتضى ٦٢٧/١ .
(٣) ٢٣٩/١ ، ٦٢٧ .
(٤) ص ٣٩ .
(٥) انظر مخطوطة الديوان الورقة ٢٨ ، وانظر الورقة ٢٦٨ حيث تجد مقدمتين أولاهما سبعون بيتا وأخراهما ستة وستون بيتا .
(٦) ص ٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والولوج الى شعابه الشعراء المحدثون ، وان كان الاحسان المطبق المفصل والجيد من كل شيء قدرا معدودا . وللفحلين المبرزين الطائيين : أبي تمام وأبي عبادة البحتري في هذا المعنى مالا يغبر في الوجوه سبقا ، لا سيما البحتري فانه مولع بالقول في الشيب ، لهج به ، معيد مبدىء لأوصافه ، ولا تكاد أكثر قصائده تخلو من إلمام به وتعرض له ، فقدزاد فيه على كل متقدم لزمانه اكثاراً وتجويداً وتحقيقا وتدقيقا ، فاني أخرجت له في الشيب مائة وأربعين بيتا ، لكنها مملوءة إحسانا وتجويداً » .

أما أن الشعراء القدماء من جاهلين وأمويين لم يسهبوا في وصف الشيب والألم لفقد الشباب فهذا حق لا ريب فيه ، وأما أن يكون أبو تمام والبحتري هما اللذان أطنبا في وصف الشباب والشيب ، ووقعا فيه على معان وصور نادرة وطريفة فهذا أمر لا شك فيه ، ولكن الذي لا شك فيه أيضا هو أن ابن الرومي أكبر من تخصص في بكاء الشباب والتألم من فقده، وذم الشيب والجزع منه . والذي يفرقه عن أبي تمام والبحتري — مع ملاحظة تفوقه عليهما من حيث كثرة أبياته وطول مقدماته — هو أنه لم يُعنَ بتصوير شبابه وشيبه ، ولا عرضهما في صور كثيرة متنوعة ومحكمة وواسعة ، إنما عني كما أسلفنا — بالتعبير عما يداخل نفسه من الحزن تعبيرا مباشرا دون أن يجعل التصوير همه وديدنه ، وان التفت الى التصوير فإن صوره تكون بسيطة وعادية الا في القليل النادر . وفي كل ما استشهدنا به من مقدماته ما يدل على ذلك خير دلالة ، غير أننا نثبت له مقدمة أخرى استهل بها مدحته البائية في عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد . وهي تجمع كل الخصائص التي نصصنا عليها ، فهي تتصف بالطول والتفصيل إذ تبلغ ما يقرب من سبعين بيتاً ، كما أن عنايته فيها بالتعبير عن نفسه المتألمة التي تكاد تقطر دماً تغلب على عنايته بالتصوير، وهو ألم مصدره اجتناب المرأة له ، وصدّها عنه ، وأيضا فان فيها خاصة جديدة لم نشر اليها من قبل ، وهي أنه مزج بين حبه للمرأة وحبه للطبيعة،

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
الجمهورية العربية السورية مجمع اللغة العربية

فاذا هو متعلق بهما مشدود إليهما ، واذا هما يذكرانه بشبابه المفقود يقول (١) :

صبا مَن شابَ مفرقةُ تَصابِ وإن طلبَ الصِّبا والقلبُ صابِ (٢)
أعاذل راضني لك شيب رأسي ولولا ذاك أعياك اقتضابي (٣)
فلومي سامعاً لك أو أفيقي فقد حان اتئابك واتئابي (٤)
وقد أغناك شيبي عن ملامي كما أغنى العيون عن ارتقابي (٥)
كفى بالشيب من ناه مطاع على كره ومن داع مجاب
وقلت مسلما للشيب أهلا بهادي المخطئين الى الصواب
ألست مبشري في كل يوم بوشك ترحلي إثر الشباب
لقد بشرتني بلحاق ماض أحب الي من برد الشراب
فلست مسميا بشراك نعيا وان أوعدت نفسي بالذهاب
وأنت وان فتكت بحب نفسي وصاحب لذتي دون الصحاب
فقد أعتبتني وأمت حقدي بحثك خلفه عجلا ركابي
إذا الحقتني بشقيق عيشي فقد وفيتني فيه ثوابي
وحسبي من ثوابي فيه اني واياه نئوب إلى مآب
لعمرك ما الحياة لكل حي إذا فقد الشباب سوى عذاب
فقل لبنات دهري فلتصبني إذا ولّى بأسهمها الصِّياب
سقي عهد الشبيبة كل غيث أغر مجلجل داني الرَّباب
ليالي لم أقل سقيا لعهد ولم أرغب الى سقيا سحاب
ولم أتنفسِ الصُعَداء لهفا على عيش تداعى بانقضاب
أطالع ما أمامي بابتهاج ولا أقفو المولّي باكتئاب
أجُدُّ الغانيات قلين وصلي وتطبيني إليهن الطوابي
صددن بأعين عني نواب ولسن عن المقاتل بالنوابي
ولم يصددن من خفرٍ ودلٍّ ولكن من بعاد واجتناب
وما أنصفن اذ يصرمن حبلي بذنب ليس مني باكتساب

(١) مخطوطة الديوان الورقة ٢٨ .
(٢) الصبا : جهل الشباب . التصابي : تكلف الصبوة . صاب : من صبا يصبو اذا حن.
(٣) راض : ذلل . اعيى : اعجز . الاقتضاب : من اقتضب الناقة اذا ركبها قبل ان تراض.
(٤) الاتئاب : الاستحياء .
(٥) الارتقاب : المراقبة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكن اذا اعتددن الشيب ذنبا ... على رجل فليس بمستتاب(١)
وما لك عند من يعتد ظلما ... عليك بذنب غيرك من مَتاب(٢)
يذكرني الشباب صدى طويل ... إلى برد الثنايا والرضاب(٣)
وشح الغانيات عليه إلا ... عن ابن شبيبةٍ جَوْن الغراب(٤)
يذكرني الشباب هوان عتبي ... وصد الغانيات لدى عتابي
يذكرني الشباب سهام حتفٍ ... يصبن مقاتلي دون الاهاب(٥)
وكل مبارز بالشيب قرنا ... فمَسْبيٌ لعمرك غير ساب
يذكرني الشباب جنان عدن ... على جنبات أنهار عذاب
يذكرني الشباب رياض حزن ... ترنم فوقها زُرقُ الذباب(٦)
يذكرني الشباب سَراة نِهْيٍ ... نمير الماء مطرد الحباب(٧)
تذكرني الشباب صبا بليل ... رسيس المس لاغِبَةَ الركاب(٨)
يذكرني الشباب وميض برق ... وسجع حمامة وحنين ناب(٩)
فيا أسفا ويا جزعا عليه ... ويا حزنا الى يوم الحساب
أأفجع بالشباب ولا أعزى ... لقد غفل المعزي عن مصابي
أيا برد الشباب لكنت عندي ... من الحسنات والقسم الرغاب
بليت على الزمان وكل بُرد ... فبين بلى وبين يد استلاب
وعز علي أن تبلى وأبقى ... ولكن الحوادث لا تحابي
لبستك برهة لبس ابتذال ... على علمي بفضلك في الثياب

(١) يريد أن من عادتهن أن الشيب عندهن ذنب لا يغتفر .
(٢) المتاب : التوبة .
(٣) الصدى : العطش . برد الثنايا : انتظامها وبريقها . الرضاب : الريق .
(٤) الضمير في عليه يعود الى برد الثنايا . الشح : البخل . جون الغراب : أسود الشعر .
(٥) الاهاب : الجلد . سهام الموت : ما ترسله الحسناء من نظراتها .
(٦) الحزن : ما غلظ من الارض .
(٧) السراة ههنا : متن الطريق بجانب النهر . النهي : الغدير . النمير : العذب
الحباب : طرائق الماء .
(٨) البليل : فيها برودة . رسيس المس : ثابتة اللمس .
(٩) حنين الناب : شوق الناقة المسنة الى أولادها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولــو ملّكْتَ صوتَكَ فاعلمنـــــهُ   لصنتــك في الحرير من العياب(١)

فنحن نرى في هذه المقدمة ــ فضلا عن طولها ــ ما يسيطر عليها من العاطفة الحزينة الى أبعد حدود الحزن . وهي عاطفة لا تسير في خط واحد ولا بدرجة واحدة ، بل تخضع لنفسيته المضطربة ، فهو في أول الأبيات كأنما قطع حبائل الأمل من الحياة كلها ونفض يديه من ملاذها ، واستسلم لليأس القاتل منها . ومضى يصور يأسه وقنوطه فاذا هو ينتهي الى أن الشيب هو العذاب السرمدي المفضي الى الموت ، واذا هو يود لو ودع الحياة كما ودعها شبابه ويتمنى لو فني كما فني شبابه . غير أنه لم يلبث أن انتزع نفسه من هذا الحزن ، واذا ذكريات الشباب تتراءى له وتفد على خاطره ، يوم أن كان سعيداً بفتوته وقوته ، ويوم إن كان غارقا في النعيم ينظر إلى الحياة فتسره ، ويقبل على ملذاتها فتنقاد له وتقبل عليه. ويقارن بين حاله في عهد الشباب وحاله في عهد المشيب ، فقد أخذ النساء يصدفن عنه بعد أن شاب ، وهو صدوف لا يصدر عن حيائهن وادلالهن عليه بأنفسهن ، بل يصدر عن أنهن لم يعدن يرين فيه فتى أحــلامهن . ويحتج عليهن بأنهن يعاقبنه على جريرة لم يجرها على نفسه ، ولا حيلة له بدفعها عن نفسه .

ولم يلبث أن أخذ يصف شوقه إلى النساء ورغبته فيهن ، فهو ظامىء إلى تقبيلهن ولثمهن ظمئا يكاد يعصف به ويحرق قلبه . وفي غمرة هذا الشوق مضى يصف ما يعيد إليه ذكريات الشباب من قلة التفاتهن إليه ، وعدم احتفائهن بعتابه ، وأعراضهن عنه ، ونظراتهن التي تشبه السهام النافذة إلى مقاتله ، ومن شباب الطبيعة ومناظرها الخلابة من جنات تجري فيها الأنهار ، ورياض جميلة وأنهار ينساب ماؤها صافيا متراكبة قطراته بعضها فوق بعض ، وأغاني أطيار . واذ بلغ الى هذا الحد من تصوير نفسيته المضطربة ما بين يأس وأمل ، وشقاء ونعيم ، ولهفة على الشباب ، وجزع من المشيب ، وتمسك بالشباب ونسيان له ، واسترجاع لأيامه

(١) العياب : ما تحفظ فيه الثياب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحلوة السعيدة ، ومزج بين تلك الأيام الجميلة وبين جمال الطبيعة في في عرسها الخالد ، عرس الربيع الذي تتزين فيه بأبهى حللها ـ راح يأسف على شبابه الضائع أشد الأسف ، ويتحسر عليه أعظم التحسر ، مبينا كيف انه أقبل على الحياة وعكف على الملاهي حتى أهلك نفسه بنفسه ، واستفرغ طاقته وحيويته ، وهو على علم بعكوفه واسرافه مع عجزه عن الاحتفاظ بشبابه وتحقيق رغباته ، ومصرحا بأنه لو قدر على صيانة ثوب شبابه الذي أفناه لصانه في حقائب لا يمكن أن يصل إليها الفناء والبلى .

وعلى نحو ما رأينا في المقدمات السابقة من أنه اذا تفجع على شبابه فانه لا يتفجع عليه من حيث هو فترة زمنية انقضت ، وانما يتفجع على ما فقده من المتع والملذات ، وهي متع وملذات أساسها المرأة التي عزفت عنه في مشيبه ، فاننا نرى نفس هذه المعاني واضحة أشد الوضوح في هذه المقدمة . فهو يتحسر على لذته التي افتقدها بفقد شبابه الذي هو ربيع حياته و « شقيق عيشه » . وتبلغ به الحسرة عليه جدا يطلب الى الشيب معه أن يخنى عليه كما أخنى على شبابه ، فالحياة بدون الشباب ليست سوى عذاب دائم وحرمان مستمر . ويخيل إلى الانسان أن ابن الرومي لشدة تعلقه بشبابه ، ولشدة ألمه لانقضاء عهده قد أخذ يهذي به هذيانا ، وآية ذلك أنه ردد كلمة الشباب ثلاث عشرة مرة ، كأنما هو في حلقة ذكر يسبح فيها بنعمه وآلائه .

وما هذا الذي يشده الى الشباب ويذكره به ؟ إنه صداه الطويل وظمؤه الذي لا تنطفيء ناره الى النساء والمتاع بهن ، وهذه الطبيعة التي تتبدى له بشبابها والتي يرى فيها شبابه الضائع . وما هذا الذي يؤلمه في المشيب ؟ انه انصراف النساء عنه ، واجتنابهن له ، وعدم استماعهن لعتابه بل لندائه ورجائه الا يأخذنه بذنب غيره ، ذنب المشيب الذي لم يكن له يد فيه .

وإذا رجعنا ننظر في المقدمة من حيث أسلوبها ، لم نجد فيها خصائص جديدة غير الخصائص التي استخلصناها من سابقاتها . فعبارته مستوية مستقيمة لا عوج ولا التواء فيها ولا زخرف ولا تكلف ، ولا إغراق في تنميق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما استخدمه من أدوات البديع فيها . وهي أدوات أشهرهـا الجناس والطباق اللذان لا يقصد اليهما قصدا من أجل التلاعب بالألفاظ والمعاني ، بل يعمد اليهما لتبيان ما يشعر به من الآلام وما يختلـج في نفسـه من الانفعالات الشديدة المتناقضة التي يحسها وتؤرقه وتتعبه . فقد جانس بين الصبا والتصابي ، وبين نئوب والإياب ، وبين تصيب والصياب ، وبين تطبي والطوابي ، وبين العتب والعتاب ، وبين مسبي وساب ، وبين الصون وصان ، كما طابق بين راض وأعيى ، وبين لام وأفاق عن اللوم ، وبـين أطالع وأقفو ، وبين خفر ودلّ وبعد واجتناب ، وبين بلى وبقاء . وهي مجانسات ومطابقات لا أثر للتصوير ولا للتعقيد فيها ، بل فيها البساطة والوضـوح .

ولعل في الأمثلة التي ضربناها ما يكشف عن الفكرة التـي أردنا أن نستخلصها من مقدماته التي بكى فيها شبابه ، والتي أدرنا حديثنا عليها . فهو اذا بكى شبابه فانما يبكي حرمانه من المتع ، وهو حرمان مصـدره ازورار النساء عنه ، أولئك اللائي كن يبذلن أنفسهن له ، فلما شـاخ أعرضن عنـه .

ولكن أفلا يصح أن نقول : انه اتخذ حرمانه من المتاع بالمرأة وسيلة إلى التعبير عن حرمانه في حياته كلها ؟ لقد حرم في حياته من الصحـة والعافية ، ومن الأرزاق والجاه ، كما حرم من الأبناء والأصدقاء الاوفياء . لذلك لا نشـك في أنّ عُقْدَةَ الحرمان في الحيـاة هي التـي ألهَبتْ لهفَتَهُ على الدنيا ، وهي التي حملته على الإكباب على الملذات ، والانهماك فيها ، والإلحاح في طلبها ، مُتَّخِذاً المرأة وسيلـة إلى تعـويض ما كان يُحِسُّه من الحرمان .

الدكتور حسين عطوان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net